



موسوعة النظم والحضارة الإسلامية

٥

التربية الإسلامية نظرياً - فلسفياً - تاريخياً

وَضِعُ بِالْأَنْجَلِيزِيَّةِ وَتَرْجَمَ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ

الدكتور أحمد شليبي

دكتوراه في الفلسفة من جامعة كمبرج

أستاذ ورئيس قسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
بكلية دار العلوم — جامعة القاهرة

اعتمدت جامعة كمبرج هذه الدراسة لدرجة الدكتوراه في الفلسفة
وقدّرت جامعة القاهرة طبعتها على نفقتها

للمطبعة السادسة (١٩٧٨) مع بعض التنقيحات والزيادات



ملزمة الطبع والتشريع
مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها حسن محمد وأولاده
٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة

أولادك . . . فقال الوزير لرسل السلطان : قولوا له : إن كنت ماعلمت أنى شريكك فى الملك فاعلم ، فإنك مانلت هذا الأمر إلا بتديرى ورأى ، أما يذكرك حين قتل أبوه فقامت بتديير أمره وقامت الخوارج عليه من أهله وغيرهم ، وقدمت الأمور إليه . وجمعت السكامة عليه ، وفتحت له الأمصار القريبة والبعيدة ، حتى أطاعة القاصى والدانى ، والآن أقبل يتجنى لى الذنوب ويسمع فى السعايات ، قولوا له عنى : إن ثبات تلك القلنسوة (التاج) مرتبط بهذه الدواة ، ومتى أطبقت هذه زالت تلك (١) .

وأشعل هذا الردُّ الصريحُ ثورةَ الغضب والحقد فى نفس ملكشاه فيقال أنه دبر قتله ، وقيل إن الذى اغتاله صبي ديلمى من الباطنية تقدم إليه فى صورة مستميتح أو مستغيث ، فضربه بسكين كانت معه فقتل عليه (٢) .

وانطلقت هذه الشعلة المتوهجة التى بعثت النور فى عصر الظلام ، ولكن سيرته وسيرة أعماله بقيت عاطرة بعده أجيالا وقرونا ، وهانحن أولاء نجدد ذكراه بكثير من الإجلال والتقدير .

الأوقاف على التعليم

قبل بيت الحكمة كان التعليم يجرى فى أمكنة غير مخصصة له ، كان يلتقى العلماء بالطلاب فى المساجد ، كما كان الراغبون فى العلم يسعون إلى دور الشيوخ للسمع منهم فيها وهكذا ، ومن أجل هذا لم تكن هناك نفقات معينة تبذل فى سبيل نشر العلم . فلما ظهرت الحاجة إلى تأسيس مكان يخصص لرعاية العلم ونشر الثقافة ، ظهرت فى الوقت نفسه فكرة أن يوقف على هذا المعهد وقف يُنتج إيراداً

(١) ابن الجوزى : المنتظم ٩ : ٦٧ وابن الأثير ١٠ : ٣٨

(٢) انظر ابن الاثير فى المسكان السابق

يكفى الإنفاق على شئونه وشئون القائمين بالعمل فيه ، وكان المأمون أول من أبرز هذه الفكرة للوجود ، فإنه لم يشأ أن يكون نشاط بيت الحكمة متوقفاً على سخاء الخلفاء والأمراء ، بل أراد أن يجعل نشاطه قوياً متصلًا سواء أكان الخليفة كريماً أم شحيحاً ، فهياً للعلماء رزقاً سخياً يتقاضونه من وقف ثابت يفيض ريعه عن التكاليف المطلوبة لهذه المؤسسة الثقافية^(١) . وانتشرت فكرة المأمون هذه بين من خلفه من الخلفاء والعطاء ، فأصبح من ضروريات إنشاء معهد ثقافى أو مدرسة أن يعين لها وقف ثابت ، تتلقى منه ما يبقى بنفقاتها ، وما يمدّها بما تحتاجه من مصروفات ، ثم تطور هذا الاتجاه ، فظهرت الأوقاف أيضاً على الذين يشغلون أنفسهم بخدمة العلم فى المساجد ، بل إن بعض الأركان أو الأعمدة بالمساجد كان يوقف عليها أوقاف سخية يصرف ريعها إلى من يجلس بها للتدريس والتعليم وفيما يلى عرض سريع لمدارج من هذه الأوقاف :

نظام الملك : سبق الحديث عن النهاية الأئمية التى نزلت بالمدارس النظامية ، وكيف أن نظامية بغداد مثلاً اختفت فى ظروف غامضة ، وإن مكانها اغتصب منذ عهد سحيق ، فلم يعد معروفاً بوجه الدقة للباحثين والدارسين . . ويبدو — للأسف — إن هذه النهاية الأئمية حافت لا بالبناء فقط وإنما بكثير مما كتب عنه أيضاً ، فقد كان مما ضاع على الباحثين هذه الوثيقة التى كتبت فيها وقفية نظام الملك على مدارسه . لقد ورد ذكر هذه الوثيقة فى عدة مراجع ولكن الباحثين قديماً وحديثاً لم يستطيعوا أن يحصلوا على ذاتها أو نصها .

وعلى كل حال فعندنا من المصادر ما يمدُّ الباحث فى هذا

الموضوع بمعلومات إن لم تكن كاملة فهي قريبة من الكمال :

قال سبط بن الجوزى^(١) : وفيها (أى فى سنة ٤٦٢ هـ) أوقف نظام الملك الأوقاف على النظامية . وحضر الوزير والقضاة والمدول بيت النوبة ، وكتبوا الكتب وأثبتت ، وبما وقف سوق المدرسة وضياع^٢ وأما كن وشرط [نظام الملك] الشروط المعروفة .

ويقول أبو الفرج عبد الرحمن بن هلى بن الجوزى^(٢) فى حوادث نفس السنة : وفى يوم الإثنين السادس والعشرين من جمادى الآخرة جمع العميد أبو نصر الوجوه ، فأحضر أبا القاسم ابن الوزير فخر الدولة والنقيبين والأشراف وقاضى القضاة والشهود إلى المدرسة النظامية وقُرئت كتب وقفيتها ، ووقف الكتب فيها فكان فى الوقف ضياع^٣ وأملاك وسوق ابتنيت على بابها .

وقد رأى ابن جبير ببغداد نحواً من ثلاثين مدرسة وهو يقول إنه ما فيها مدرسة إلا وهى يقصر القصر البديع عنها ، وأعظمها وأشهرها النظامية التى بناها نظام الملك ، وهذه المدارس أوقاف عظيمة وعقارات واسعة للإتفاق على الفقهاء والمدرسين بها والإجراء على الطلبة^(٣) .

أما ما خصص من المال لرعاية الشؤون الثقافية على العموم ، وكذلك ريع الأوقاف المعينة للمدارس فإن المراجع التى بين أيدينا أوردت تفصيلات نافعة عنها ، فقد ورد أن ما كان يتنفقه نظام الملك فى السنة على التعليم قد بلغ

(١) مرآة الزمان ١٢١ - ٢ مخطوط بياريس .

(٢) المنتظم فى تاريخ الأمم والملوك ج ٨ ص ٢٥٦ .

(٣) رحلة ابن جبير ٢٢٩ .

٦٠٠٠٠٠ دينار^(١) .

أما الريع الذي كانت تنتجه الأوقاف المخصصة لنظامية بغداد فقد ورد أنه كان ١٥٠٠٠ دينار في العام^(٢) وقد كان ذلك الريع كافياً لمرتبات الشيوخ ولما يدفع للطلبة ، وكان يشمل مئونة طعامهم وملابسهم وفرشهم وغير ذلك من ضرورات معاشهم حتى ينبغ فيها جمع من الفقهاء الأفاضل ممن لا يحصون كثرة^(٣) أما أوقاف نظام الملك على نظامية أصفهان فقد كانت تغل ١٠٠٠٠٠ دينار سنوياً^(٤) .

نور الدين : فيما يختص بنور الدين سبق أن أوردنا وثيقة هامة تبين بوضوح الأوقاف التي عينها للمدرسة النورية الكبرى ، وقد ظهر منها أن ريعها الوفير كان يكفي للإيفاق على الطلاب والمدرسين إنفاقاً متواصلاً سخياً . ومن الممكن هنا أن نعطي مثالا آخر لنؤكد هذه الحقيقة ، فقد ذكر أبو شامة^(٥) أن نور الدين وقف على المدارس الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية وعلى أئمتها ومدرسيها وفتاها أوقافاً كافية ، ومن مناقبه أنه عين المغاربة الذين كانوا يلحقون بزاوية المالكية بالمسجد الجامع أوقافاً كثيرة منها طاحونتان ، وسبعة بساتين ، وأرض بيضاء ، وحمام ، ودكانان بالطيارين ، وجعل أحد هؤلاء المغاربة مشرفاً على هذه الأوقاف^(٦) .

(١) ناجي معروف : المدرسة المستنصرية ص ٨

(٢) محمد عبده : الاسلام والنصرانية ص ٩٨

(٣) تاريخ مساجد بغداد للألوسي ص ١٠٣

(٤) سعيد نفيس : مدرسة نظامية بغداد ص ٢

(٦) ابن جبير : الرحلة ص ٢٨٥

(٥) الروضتين ١ : ١٦

الأوقاف على التعليم في مصر *

وجدت الأوقاف على التعليم في مصر قبل عهد نظام الملك ونور الدين بوقت طويل ، فند سنة ٣٧٨ هـ في خلال عهد العزيز بالله أصبح الأزهر معهداً علمياً أكثر منه مسجداً^(١) ، ولذلك نجد أن الوزير يعقوب بن كلس يسأل الخليفة العزيز بالله في صلة رزق جماعة من الفقهاء فأطلق لهم ما يكفي كل واحد منهم من الرزق الناض وأمر لهم بشراء دار وبنائها فبنيت بجانب الجامع الأزهر . فإذا كان يوم الجمعة حضروا إلى الجامع وتحلقوا فيه بعد الصلاة إلى أن تصلى العصر ، وكان لهم أيضاً من مال الوزير صلة^(٢) . فلما جاء الحاكم عمداً إلى الأوقاف يُعيّنها للإنفاق من ريعها على المساجد والمؤسسات الثقافية ؛ فلقد أوقف على الجامع الأزهر ، والجامع براشدة ، ودار العلم ، أوقافاً عظيمة ذكرها في سجل أشهد عليه قاضي القضاة مالك بن سعيد الفاروقى . وكانت الأوقاف عبارة عن جميع الدار المعروفة بدار القرب ، وجميع القيسارية المعروفة بقيسارية الصوف ، وجميع الدار المعروفة بدار الخلق الجديدة ، ويؤكد الحاكم أن هذه الوقفية دائمة للأبد لا يوهنها تقادم السنين^(٣) .

فلما جاء الأيوبيون إلى مصر نقلوا معهم حماسة نظام الملك ونور الدين ، وحمايتهم للعلم ، ثم وجدوا أنفسهم في مصر ، أمام تراث الفاطميين العريق ، ومدينتهم العريضة ، التي كان الفن والعلم من أنضر فروعها ، فحافظ الأيوبيون على هذا التراث المزدوج ، ورعوا العلم ، وما بخلوا في الإنفاق

* الحديث عن مصر سيشمل أيضاً الحديث عن سوريا ؛ إذ امتد نفوذ الفاطميين والأيوبيين والمالكيين إلى بلاد الشام في فترات طويلة من حكم هذه الأمور ، وعلى هذا فستذكر أمثلة عن الأوقاف في سوريا خلال هذا الحديث .

(١) Stanley Lane-Poole : Cairo 123, 121.

(٢) المقرئى : الخطط ٢ : ٢٧٣ . (٣) المصدر السابق ٢ : ٢٧٣ — ٢٧٤ .

عليه ، أنشأوا كثيراً من المدارس ، وأوقفوا عليها الأوقاف السخية ، وظهرت موجة من التنافس في هذا السبيل أخذ فيها الأمراء والوزراء والعلماء والعامة بنصيب ملحوظ ، وفيما يلي أمثلة موجزة لهذه الأوقاف :

يقول ابن جبير^(١) إن كل مسجد يستحدث بناؤه أو مدرسة أو خانقاه^(٢) يعين لها السلطان صلاح الدين أوقافاً تقوم بها وبساكنيها والملتزمين بها ، ويضيف المقرئ أن صلاح الدين عندما بنى المدرسة الناصرية بالقرافة وقف عليها حماماً بجورها ، وفراً تجاهها ، وحوانيت بظاهرها ، والجزيرة التي يقال لها جزيرة النيل يبحر النيل خارج القاهرة^(٣) .

واقتردى بصلاح الدين غيره ممن أنشأوا المدارس ورعوا العلم في العهد الأيوبي ، ومن هؤلاء تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب الذي اشترى منازل العز التي كانت تشرف على النيل ومعدة لنزهة الخلفاء الفاطميين ، ثم جعلها مدرسة للفقه الشافعي . ووقف عليها الحمام وما حولها ، وبني فندقاً عرف بفندق النخلة ووقفه عليها ، ووقف عليها جزيرة الروضة التي كان قد اشتراها من قبل^(٤) .

ومن المدارس التي حظيت بوقف سخى المدرسة الدماغية بدمشق وكانت داراً لشجاع الدين بن الدماغ فلما مات جعلتها زوجته مدرسة للشافعية والحنفية ووقفت عليها ثمانية أمهم من أربعة وعشرين سهماً من المزرعة الدماغية ، والخصبة من رجم الحيات ، والخصبة من حمام إسرائيل خارج دمشق ، والخصبة بدير سلمان من المرج ، ومزرعة شرخوب عند قصر أم حكيم ، ومحاکرات ، وغير ذلك^(٥) .

ويذكر المقرئ^(٦) ثمانية من زوايا جامع عمرو التي كانت تقام بها حلقات

(١) الرحلة ص ٢٧٥ . (٢) خانقاه أو خانكاه كلمة فارسية الأصل جمعها في العربية خوانق ومعناها دار موقوفة لسكنى الزهاد والصوفية والعباد (٣) انظر كذلك الخطوط ٢ : ٤٠٠ .

(٤) الخطوط ٣ : ٣٦٤ . (٥) التكملة : الدارس ١ : ٢٣٦ - ٢٣٧ .

(٦) الخطوط ٢ : ٢٥٠ - ٢٥٦ .

تعليمية ويشير إلى الأوقاف التي وقفت على كل من هذه الزوايا وفيما يلي للمامة موجزة ببعضها :

- زاوية الإمام الشافعي التي درس بها فعرفت به ، ووُقيت عليها أرض بناحية سنديس ، وقفها السلطان الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين .
- الزاوية السكالية بالمقصورة المجاورة لباب الجامع الذي يَدْخُلُ إليه من سوق الغزل، رتبها كمال الدين السمودي وعليها فندق بمصر موقوف عليها .
- الزاوية الفاجية أمام المحراب الخشب ، رتبها تاج الدين السطحي وجعل عليها دوراً بمصر موقوفة عليها .

وهكذا كانت الأوقاف في الغالب هي المورد الذي ينفق منه على التعليم في العالم الإسلامي ، ولكن في بعض الحالات كانت نفقات التعليم تدفع من الخزنة العامة للدولة ، ذكر المؤرخون أن الوزير ابن كلث كان يجري بأمر العزيز بالله ألف دينار في كل شهر على جماعة من أهل العلم والوراقين والمجلدين ^(١) . ومن الأمثلة التي تدعو للعجب والدهشة ما رواه ابن بطوطة ^(٢) من أن أحمد ملك إيدج كان يقسم خراج بلاده أثلاثاً ويجعل الثلث لنفقة الزوايا والمدارس . وفي ختام هذا البحث نورد وقفية هامة هي تلك التي وقفها ست الشام أخت السلطان صلاح الدين على المدرسة الشامية الجوانية ، وقد حُرِّبَت هذه المدرسة واتَّخِذَت داراً ، ولكن بقي منها بابها القديم وقد كتب على عتبته العليا نص الوقفية ، وعلى الصفحة التالية صورة هذه العتبة (شكل رقم ١٥) وتمتاز هذه الوقفية - فوق أن مرجعها هو النص المكتوب على العتبة وهو مرجع موثوق به تماماً - بأنها وقفية منفصلة دقيقة ، ثم بأن طريق إنفاق ريع الأوقاف ورد لنا منفصلاً في مرجع هام هو تاريخ مدارس دمشق للنعماني ،

(١) آدم ممتز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ١ : ٢٩٤ من الترجمة العربية .

(٢) تحفة النظار لابن بطوطة ٢ : ٣١ .

وفيا إلى نص الوقفية :

بسم الله الرحمن الرحيم : هذه مدرسة الخاتون الكبيرة الأجلة عصمة الدين ست الشام أم حسام الدين بنت أيوب بن شادى رحمها الله ، وقفها على الفقهاء والمتفقهة من أصحاب الإمام (الشافعى) رضى الله عنه ، والموقوف عليها وعليهم وعلى ما يتبع ذلك ، جميع القرية المعروفة ببزينة ، وجميع الحصة وهى أحد عشر سهماً ونصف من أربعة وعشرين سهماً من جميع المزرعة المعروفة بجرمانا ، وجميع الحصة وهى أربعة عشر سهماً وسبع من أربعة وعشرين سهماً من القرية المعروفة بالتينة ، ونصف القرية المعروفة بمجيدل السويدا ، وجميع القرية المعروفة بمجيدل القرية ، وذلك فى سنة ثمان وعشرين وستائة .

أما الإنفاق على هذه المدرسة فقد وضع على النسق الآتى :

أولاً — يبدأ فى الإنفاق بعبارة المدرسة ، وثمان زيت ، ومصاييح ، وحصر ، وبسط ، وقناديل ، وشمع ، وما تدعو الحاجة إليه .

ثانياً — يدفع للمدرس غرارة من الحنطة ، وغرارة من الشعير ، ومائة وثلاثون درهماً فضة ناصرية .

ثالثاً — عشر الباقي يصرف إلى الناظر عن تعبهِ وخدمته ومشارفته للأُملاك الموقوفة وتردده عليها .

رابعاً — إخراج ثلثائة درهم فضة ناصرية فى كل سنة ، تصرف فى ثمن بطيخ ومشمش وحلوى فى ليلة النصف من شعبان على ما يراه الناظر .

خامساً — الباقي يصرف إلى الفقهاء والمتفقهة والمؤذن والقيم المعبد لكنس المدرسة ورشها وفرشها وتنظيفها وإيقاد مصابيحها ، ويعطى هؤلاء على قدر استحقاقهم على ما يراه الناظر فى أمر هذا

الوقف من تسوية وتفضيل وزيادة ونقصان وعطاء وحرمان .

وقد ذكرت الواقعة أن من شرط الفقهاء والمتفقهة والمدرس والمؤذن والقيم أن يكونوا من أهل الخير والدين والصلاح والعفاف وحسن الطريقة وسلامة الاعتقاد والسنة والجماعة كما شرطت - رغبة منها في أن يظل الملتحقون بالمدرسة في مستوى مالى لائق - ألا يزيد عدد الفقهاء والمتفقهة المشغولين بهذه المدرسة عن عشرين رجلاً ، من جملتهم المعيد بها والإمام ، وذلك بخلاف المدرس والمؤذن والقيم إلا أن يوجد في ارتفاع الوقف نماء وزيادة وسعة فللناظر أن يقيم بقدر ما زاد ونما (١) .

حلقة التعليم

ظهرت حلقة التعليم في العالم الإسلامى مبكرة ، أو قل إنها ظهرت مع ظهور الإسلام ، وتعددت الحلقات واستمرت ، ولا تزال حتى العهد الحاضر تحمل طابع الماضى المجيد ، وحسبك أن تزور الأزهر ، أو تزور أحد المساجد الشهيرة في العالم الإسلامى كله ، لترى الشيخ مقبلاً على طلابه بحماسة ظاهرة ، وترى الطلاب تركزت عيونهم في الشيخ ، لا يرون سواه ، ولا يستمعون إلا إليه ، كأنما شددت عيونهم بوجه الشيخ ، وآذانهم بما ينطق به لسانه .

ويجلس الشيخ على حشية صغيرة (ثلثة) أو على منصة ، ويغلب أن يكون ظهره إلى حائط أو سارية من سوارى المسجد ، ويكون الحضور حلقة أمامه ، يكون هو في أركز نقطة في محيطها ، ولا يجلس المستمعون